يتحدث هاملتون في مقدمة كتابه، فيصف الهضبات والنجاد، انها تحتضن طائفة من اجمل مناظر الطبيعة الجبلية في العالم ويقول لو ان اعداء الكُرد تركوهم يعيشون بسلام ولم يلاحقوهم بثأراتهم واحقادهم ومنافساتهم كما تلاحق الصقور الوحوش الجريحة فان حركة السياح وحدها في هذه المنطقة يمكن ان تأتي بالخير العميم. لكن هذه الحركة لاتقوى ولاتتحقق في طرق تسدها الدبابات والمدافع ونقاط التفتيش. وليست هناك صرخة إنسانية انقى من صرخة هاملتون اطلقها قبل أكثر من سبعين عاماً، انه يقول:

اسحبوا القطعات العسكرية. وقدموا للكرد ما يستحقون من خدمات بانفاق جانب من عوائد النفط وانفقوا عشر ما ينفق حالياً على الجيش ودعوا حفاري عيون الماء يعيشون في بحبوحة في كُردستان كلها واذ ذاك سيلتهب (دَشتي حرير) بشقائق النعمان الحمراء لا بدماء الكُرد القانية.

ويعقب هاملتون على صرخته هذه برومانسية تهكمية إذ يقول: هذه نصيحة بسيطة جداً لو كان (عمر الخيام) معنا لاعلن عن رضاه بها (٨).

وعلى الرغم من ان هاملتون (النيوزيلاندي) كان موظفاً بريطانيا وان مهمته كانت مهمة مدنية قوامها شق طريق في منطقة وعرة من كُردستان ولكن كانت له عيونه الثاقبة وحسه السياسي والإجتماعي المرهف ونجده في الوقت ذاته يتمتع بحس إنساني ليس من الصعب تلمسه في مذكراته أو في سرده لإنطباعاته الشخصية فان ما تقدم من صرخته الإنسانية لايمكن الا ان تنم عن روح إنسانية متعاطفة مع بؤس شعبنا الكُردي المغلوب على امره آنذاك.

ان هاملتون في مقدمته للترجمة وبخبرة نطاسي ماهر يضع اصبعه على الجرح على الرغم من ان الجرح بين تلك الفترة التي كتب فيها هاملتون مقدمته واليوم اصبح اعمق غوراً واشد نزفاً.

ان هاملتون يؤشر على ظهور طبقة عسكرية حاكمة اعتمدت على حيازة السلاح الذي اصبح ممكناً لها بفضل تحسن الوضع المالي. ويعلق هاملتون على هذه المسألة حيث انها مسألة لم تخص العراق وحده، فقد اصبحت الأسلحة من وجهة نظر هاملتون لعبة جديدة يسهل استعمالها الى درجة مدهشة وكان إستخدامها كما يقول امراً محتوماً في العراق ويضيف ان العراقي استعمل هذا السلاح مع نفسه، أي مع شعبه وهذا امر لم يكترث له بائع الأسلحة أو مجهزها حتى يومنا هذا (٨) ان ادانة هاملتون لمجهزي الأسلحة للفئات أو الحكومات العسكرية وإستخدامات هذه الفئات للسلاح المدمر لابناء شعوبهم والشعب الكُردي مثال حي جداً من امثلة القرن العشرين لما يذهب اليه هاملتون، لدليل على عمق نظره ووجدان هذا المهندس (الأجنبي).

ان هاملتون لايتألم من الحرب التي دارت وعانت منها كُردستان وحسب بل من افرازاتها، فهو إذ يجهر، اذا كانت نتائج سنوات الحرب في كُردستان تبذيراً في المال واسترخاص الحياة وتنمية الاحقاد فان أسوأ النتائج قاطبة في رأيه هو ان التعليم في كُردستان قد توقف. وهو إذ يقر ظهور بعض المثقفين ولكنهم قلة اذا قورنوا بما يمكن ان تخرجه كُردستان التي يصفها بالبقعة الشمالية الملأى بالحيوية من البنائين والمهندسين والمعماريين لاعمار العراق، ومن اطباء وممرضين لتحسين المستوى الصحي ومن تجار وكتاب وشعراء ليجعلوا من البلد بلداً يحتذى به بين البلدان (٩). ان المضحك المبكي ما اورده هاملتون في مقدمته حول الحملة التي جردتها الحكومة عام ١٩٣١ على الشيخ أحمد البارزاني. ان رأى الدولة كما يأتي:

(حسناً ماذا نفعل بالجيش العراقي الذي صرف على إعداده وتجهيزه المال الطائل ان لم نبعث به الى طريق كطريق راوندوز ليتعلم فنون القتال وليتدرب بحرب يشنها على الكُرد)

ويقول هاملتون للقاريء، واليك جوابي التالي الذي قوبل بالضحك:

(اقرب من هذه المنطقة الى بغداد والموصل توجد ساحات شاسعة من المناطق الصحراوية الخالية التي يملكها العراق بين دول قلة وهي صالحة لتجربة البنادق ومدافع الميدان وتحريك الدبابات وتحليق الطائرات، فلتطلق المدافع هناك حيث لايخشى ان تصيب احداً. ولكن لاترسلوها الى كُردستان) (٩).

وجدنا من الضروري ان نطلع على بعض ما جاء في مقدمة هاملتون لما فيها من إنطباعات إنسانية مهمة لم تأت بشكل عفوي بل جاءت من نظرة موضوعية وميدانية ثاقبة ومن معايشة متماشية مع البيئة الكُردية وظروفها.

ان هاملتون على ما يبدو كان قد احاط نفسه بخبرة تاريخية سياسية حول المنطقة فعندما يتحدث عن قلعة شاهقة ضخمة اعترضت عمله في شق الطريق وصفها انها شيدت من قبل كور باشا، الذي يصفه بانه كان الحاكم المطلق لراوندوز ومعظم بلاد كُردستان قبل مئة سنة من الفترة التي كان هاملتون يعمل فيها.

ان هاملتون يقول عن هذا الأمير الكُردي، كور باشا، انه اغتيل كمعظم مشاهير الكُرد وحكامهم والترك هم الذين قضوا عليه.

لاشك ان القاريء يمكن ان يستشف لهجة التعاطف مع الكُرد وحكامهم وابتلائهم بالعثمانيين من لهجة هاملتون لوصفه القلعة وبانيها كور باشا.

يذكر هاملتون ان الروس بالاشتراك مع الأرمن والآثوريين كانوا قد قاموا بتخريب معظم مدينة راوندوز وهو يذكر ان معظم الاجزاء السفلية من هذه البلدة مازالت مهدمة وان اهالي

هذه المدينة لم يستطيعوا القيام بإصلاح هذه الاجزاء المهدمة الى ان استعادت الطريق الجديدة مكانتها ويبدو كان لهاملتون خادم آثوري اسمه كوركيس كان قد اشترك بتخريب المدينة عند الهجوم عليها إذ يذكر هاملتون ان كوركيس هذا لطالما اسمع هاملتون اشتاتاً من قصة حصار راوندوز متفاخراً بذلك إذ يصفه هاملتون انه كان يتحدث بلهجة (يوليوس قيصر) مفاخراً وهو يقول: (لقد اشعلت النار في راوندوز مرتين).

ان هاملتون كان قد نصح كوركيس هذا ان يخفف من غلوائه ومباهاته في الحديث محاولاً افهامه انه كلما اقتصد بالحديث عن (بطولاته) كان ذلك افضل لهما أي لهاملتون ولكوركيس.

وربما كان هاملتون يقصد عدم إثارة الضغائن وفتح الجروح لاسيما وان العمال الكُرد كانوا أكثر في عملية شق ذلك الطريق وان المدينة مازالت مهدمة في اجزاء كثيرة منها.

ان هاملتون يعلق على هذه النصيحة التي اسداها الى كوركيس قائلاً، لانه عزم ان يكون صديقاً للشعب الكُردي ولذا لم يكن يرغب في ان يصب الكُرد جام غضبهم على خادمه...

يتحدث هاملتون عن ثورة الشيخ محمود والكُرد الذين كانوا يحفون به، وعلى ما يبدو ان أوائل الخبرة الإنطباعية التي كونها هاملتون عن الشيخ محمود ورجاله تعود الى ما سمعه من كلارك وكلارك هذا كان قد غدا مرجعاً كما يذكر هاملتون في اللغة الكُردية وعادات الكُرد واخلاقهم وكان اسمه قد غدا على كل شفة ولسان من اقصى كُردستان الى ادناها لاقدامه ونزاهته واحكامه البعيدة عن التحيز (١٥٥).

ان من القصص التي سمعها هاملتون عن الاهوال التي احاقت بكلارك كثيرة ولكن لا بأس ان نذكر احداها تلك التي اثرت في نفس كل من كلارك وهاملتون على حد سواء وبشكل واضح، فقد حدث كلارك ضيفه هاملتون في أربيل وعلى الرغم من ان الحادثة غير سياسية ولكنها كانت في ظرف سياسي حاد وفي ايام مكفهرة لايعرف ما ستؤول اليه الاحداث وما ستكشف عنه العلاقات البريطانية العراقية الكُردية والموقف البريطاني غير واضح من الكُرد.

لقد انكسر عظم فخذ كلارك عندما كان يتسلق اخاديد الجبال الشاهقة في مواطن الثلج وهو موضع كما يقول عنه هاملتون لم يجرأ احد على اقتحامه فحمله رجال القبائل المخلصون وساروا به اياماً مخترقين الوديان والشعاب الجبلية المخيفة، وقد شدوه شداً محكماً فوق سلم خشبي لئلاتؤلمه رجله المكسورة الى ان سلموه الى طبيب بريطاني بعد مسيرة مئة ميل في السهول وعادوا الى مجاهلهم رافضين اي مكافأة (١٥٥).

ان ما ذكره هاملتون ان الشيخ محمود اظهر انعطافاً للبريطانيين عند دخول جيشهم

كُردستان في العام ١٩١٨ الا ان النشاط السياسي الذي كان يقوم به استوجب اعتقاله بعد سنة واحدة وحرب قصيرة الامد خاضها الجيش البريطاني الذي يقوده أمير اللواء فريزر وتم ابعاده عن موطنه ولما آلت الامور الى موضوع اختيار الحكام المحليين لم يكن اجدر واليق لحكم هذه المنطقة من هذا الزعيم ذي الزعامة العريقة (١٥٥).

والحقيقة يقف المرء في حيرة امام ما يكتبه الإنكليز عن الشيخ محمود وموقفه السياسي مثلما يقف في الوقت ذاته في حيرة امام الموقف السياسي للشيخ محمود نفسه.

ان هاملتون يبدي للقاريء انعطاف الشيخ محمود للبريطانيين ولكنه ينتقد النشاط السياسي الذي قام به واستوجب اعتقاله. انها معادلة سياسية غير سهلة في تلك الفترة ولكننا نعتقد ان هاملتون أو بالاحرى كلارك الذي كان يحدث هاملتون عن هذا الموضوع، يفترض ان يقول، على الرغم من ان الشيخ محمود تعاطف معنا مضحياً بعلاقته بالعثمانيين هذه التضحية التي تنطوي على تحد ليس بالقليل امام الراديكالية الدينية في كُردستان فان البريطانيين لم يكونوا راغبين في تفهم المطالب العادلة للشيخ محمود وهي حق تقرير الكُرد لمصيرهم، ولكن هاملتون يبدو منصفاً عندما ينتقد في موضع اخر سياسة بريطانيا ازاء الكُرد، إذ يصفها بالسياسة المتذبذبة غير المستقرة على خط معين، كما ويصف مهمة كلارك الذي ارسل الى السليمانية عام ١٩٢٤ بمنصب ضابط سياسي لسلطة الانتداب مهمة صعبة جداً، إذ كانت مهمته اقناع الشيخ محمود ببقائه في طاعة الدولة العراقية الجديدة (١٥٦).

ان هاملتون يذكر ان الميجر سون الذي كان يحفظ للكرد وداً والذي كان يدير السليمانية اثناء غياب الشيخ محمود عنها قد شرع في الواقع بتجميع القبائل في اطار التهيئة لتأسيس دولة كردية فتية متطورة حتى انه بث في السليمانية نزعة تبني النظم الغربية في الادارة وتبني الوسائل الحضارية في الحكم.

ويذكر هاملتون ان سون هذا استقال من منصبه وانسحب من المنطقة وعاد الى حياة الكاتب والباحث الهادئة بعد ان وجد ان سياسته في خلق دولة كردية مستقلة لم تحظ بتأييد دولته (١٥٦). وان الشيخ محمود حاول ان يسير على هدي سون أي بعد ان أعطي الشيخ محمود حكم المنطقة وبدا الشيخ محمود متحمساً في اتباع خطة سون بإعادة تنظيم بلاده وتطويرها. ولكن كما يذكر هاملتون ان بريطانيا بدأت في تلك الفترة تدعم المصالح العربية في الحكومة العراقية دعماً كاملاً. وان الشيخ محمود كان يرى ان كل خططه واماله قد احبطت ظلماً وتعسفاً (١٥٧).

ولكن الشيخ لم تحبطه المواقف البريطانية بل سعى من خلال تشجيع رجاله له الى إقامة حكومته الكُردية المستقلة عن الدولة العراقية.

في رأي هاملتون ان قيام هذه الدولة حظي بدعم من تركيا آنذاك وقد وعده الأتراك بارسال الأسلحة له بيد ان هاملتون (المهندس) وليس (المؤرخ) لايعطينا ما يثبت هذا، ولذا نجده في عبارته لايتعدى الإعتقاد.

ولقد عمل بعض الاشخاص ممن تقلدوا مراكز مختلفة مهمة في حكومة الشيخ محمود، عند هاملتون من بعد في شق طريق راوندوز. كان البعض من هؤلاء الموظفين قد عملوا في وزارة التعليم، ووزارة المكوس والضرائب.

ان الظاهرة الغريبة التي يمكن ان نلمسها لدى الضباط السياسيين الذين عملوا في كُردستان ولاسيّما في السليمانية ابان النشاط الثوري للشيخ محمود، ان بعض هؤلاء يختلفون مع دولتهم بريطانيا في الرأي حول مصير كُردستان أو بعبارة أخرى فان القرارت المتخذة من الجهات البريطانية العليا كثيراً ما كانت تصدم إتجاهات هؤلاء الضباط السياسيين وتجعلهم يعانون من حرج كبير امام القياديين الكُرد وامام الكُرد شعباً تواقاً لحريته وحقه في تقرير مصيره بنفسه.

لقد ذكرنا من قبل تناقض رغبة الميجر سون مع القرار السياسي البريطاني مما جعل سون الذي كان يهيئ الى نشوء دولة كردية ان يستقيل ويعتزل العمل.

وها هنا نجد كلارك وهو يحدث هاملتون عن ذكرياته مع الشيخ محمود، ان كلارك يقول انه لم يكن بوسعه تقديم التأكيدات التي طلبها الشيخ محمود بان البريطانيين سوف يبقون في كُردستان حتى الإستقلال، أي إستقلال كُردستان لانه كما يذكر نصاً لهاملتون ان هذا المطلب بعيد المنال وان البريطانيين -والحديث لكلارك- قد اتخذوا القرار النهائي من انهم لن يبقوا في كُردستان ثم يقول بصريح العبارة... ولكن ما حيلتي وانا عاجز عن تقديم الحل الافضل فما كان يعني غير الأسف ويؤكد ان من وجهة نظره الخاصة كان يقدر وجهة نظر الشيخ محمود ويراها بوضوح (١٥٨).

وهكذا نجد ان كلارك لم يسعه ازاء قرار حكومته الا ان يشعر بالاسف ولايكتم صديقه هاملتون من ان الشيخ محمود كان على حق.

ويبقى كلارك أكثر التزاماً من سون بوظيفته فابلغ الشيخ محمود بقرار حكومته في وجوب خضوعه مع قومه للعرب فهو يذكر نصاً:

انك لاتستطيع حمل الكُرد على حب الخضوع للعرب ان كان العرب انفسهم عاجزين عن زرع الثقة في نفوس رعاياهم الجدد وعلى اي حال أنذرت الشيخ محمود بعبارة صريحة ان تكون قراراته وأوامره خاضعة لحكومة العراق وان يحل مجلس وزارته ويوقف العمل بجهاز

ادارته الحالي وان لم يفعل فسيعامل معاملة المتمرد البادئ بالعدوان (١٥٨).

نعتقد ان هناك أكثر من سبب يقف وراء هذا التناقض في المواقف بين التوجهات التي كان الكُرد وقياداتهم يستشفونها من الضباط السياسيين البريطانيين وبين القرارات المفاجئة للحكومة البريطانية ونقول المفاجئة للضباط السياسيين البريطانيين قبل الكُرد. وربما كان السبب الأول يعود الى المعايشة الميدانية فالضابط السياسي عندما كان يرسل الى احد المدن الكُردية ويبدأ بمعايشة المجتمع الكُردي يتعمق لديه الاحساس بأحقية هذا القوم في إمتلاك حقوقه السياسة، ويعزز من هذا الشعور نشوء علاقات شخصية بين هؤلاء البريطانيين والكُرد سواء على صعيد القيادات الكُردية أو على الصعيد الإجتماعي.

وعلى الرغم من الصراعات السياسية لا بل الحرب نجدهم أي الضباط السياسيين البريطانيين غير قادرين على اخفاء إعجابهم بشخصية الشيخ محمود مثلاً.

واما السبب الثاني فهو تغيير المواقف البريطانية ازاء الكُرد دون الاعلان عنها، مما جعل المنطقة بضباطها السياسيين في واد وصناع القرارات المركزية في واد اخر، واخذ هؤلاء الضباط يعانون من الحرج امام الكُرد وقياداتهم عندما تنكشف المواقف على حقيقتها.

ان هذا التحول في المواقف كان من الامور العسيرة التي عانى منها كلارك نفسه المعروف بحنكته السياسية كما يقول هاملتون. هذا ما جعل كلارك نفسه يقول لقد أدرك الكُرد اتباع الشيخ بغريزتهم الشرقية التي لاتخطئ ان سياسة بريطانيا ازاء الكُرد سياسة مترددة متذبذبة (١٥٦).

ويصف هاملتون الوقت الذي مر به كلارك بالوقت العصيب، فقد نشأت صداقة بين كلارك والشيخ محمود الا ان الشيخ كان مصمماً على رفض كل اوامر تصدرها حكومة عربية له، وان كلارك كان ملزماً بان يبلغه لا بل ينذره بوجوب الانصياع الى اوامر الحكومة غربية كانت أم عربية وان يتخلى عن حلمه في تقرير المصير الكُردي (١٥٧).

ان هاملتون يقف وقفة محلل منصف للموقف الكُردي فهو يعترف ان الأكراد كانوا يمتلكون المبررات كلها للإعتقاد بان السياسة البريطانية لن تتخذ قراراً بخصوص مستقبل كُردستان، وان ليس هناك ما يشير الى ان بريطانيا سوف تتعامل مع كُردستان كدولة منتدبة وازاء ما رسمته عصبة الأمم في تحديد فترة الانتداب على العراق بخمس وعشرين سنة فان الكُرد بادروا الى طلب الإستقلال وفضلوا ان يكونوا منتدبين لدولة بريطانيا على ان يكونوا منتدبين لتركيا وتصدوا لفكرة تركهم تحت حكم الدولة العراقية، ولما تحقق هذا فعلاً احبطت كل امال الشيخ محمود وهو يشعر ان غبناً وقع عليه وقومه وقال، انه وقومه لايأملون التقدم والازدهار

في ظل حكم بغداد وكان شديد المقت للموظفين العرب (١٥٧).

ان كلارك يهمس في اذن صاحبه هاملتون ان سياسة الشيخ محمود كانت تتجه دوماً الى التأكيد بانه لايضمر حقداً خاصاً لبريطانيا الا ان ما يكرهه هو خوفه ان يحكم وزراء بغداد شعبه الكُردي. لقد كان كلارك مؤمناً ان الشيخ محمود على الرغم من اندحاره، بإمكانه ان يستعيد قواه، وهو مؤمن بان هذا الرجل سيخلده التاريخ بطلاً من ابطال الشعب الكُردي (١٦٠-١).

ان هاملتون، يخبرنا ان تنبؤ كلارك كان في محله، فقد ثار الشيخ محمود ثالثة وشبت نار الثورة التي تصدت للحكومة العراقية عندما قامت الحكومة بتزوير الانتخابات عام ١٩٣٠ حتى تمنع فوز المرشحين الوطنيين الكُرد ويعلق هاملتون على هذا إذ يقول (وكما كان الحال في الماضي فقد هزمته القوة الجوية البريطانية لا جيش الجنوب العراقي في هذه المرة وسلمه البريطانيون للسلطات العربية الذي ظل يقاومها بعناد وثبات. والحكومات الشرقية لاتطلق سراح معتقليها كالبريطانيين. ولذلك بقي الشيخ حتى يومنا هذا سجيناً في يدي اعدائه مثل أكثر الكُرد الذين تبددت احلامهم بإستقلال بلادهم واصبحت شذر مذر واثراً بعد عين) (١٦١).

خالفين!

على الرغم من ان خالفين لم يقم بزيارة كُردستان -على حد علمنا- ولكن إنطباعات خالفين تكتسب اهمية بالغة في هذا الكتاب وذلك لسببين رئيسيين اولهما ان البروفيسور خالفين كما جاء ذكره في مقدمة الدكتور أحمد عثمان الذي ترجم كتاب خالفين (الصراع على كُردستان) من الروسية الى العربية، هو احد العاملين في قسم العلاقات الدولية في معهد شعوب اسيا التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في موسكو، وقد اولع بالدراسات التاريخية الكُردية جنباً الى جنب مع الدراسات التاريخية لشعوب اسيوية أخرى.

وثانيهما ان خالفين في كتابه يذكر آراء وإنطباعات عدد من المستشرقين والرحالة ممن زاروا كُردستان وعلى الرغم من هذه الإنطباعات غير مفصلة لانها جاءت أساساً كشواهد في الكتاب وليس غاية له ولكن تبقى هذه الإنطباعات في غاية الاهمية لطبيعة كتابنا هذا، إذ أن بعض هذه الإنطباعات التي جاءت في كتب هؤلاء الرحالة والمستشرقين غير متوفرة في العراق أساساً.

يذكر هنري تروتر القنصل البريطاني في كُردستان في الثمانينات في القرن التاسع عشر (كما جاء في كتاب خالفين)، في مقال بعنوان اكراد آسيا الصغرى، ما يشير الى حالة التذمر

الكُردي والنزوع الى المطالبة بالحقوق الثقافية وكذلك المطالبة بالإصلاح الاداري، فقد وقع (١٧) رئيساً كردياً باسم اربعين الف مواطن كردي من ولاية وان وانحائها عريضة الى ممثل السلطان الذي كان قد وصل مدينة وان لإجراء الإصلاحات الادارية فيها. لقد طلب هؤلاء في عريضتهم التماساً من الدولة بفتح مدارس في كُردستان وهم يتعهدون باسم المواطنين الكُرد كافة تغطية مصاريف تلك المدارس (٧) أي ان الدولة لن تتكلف بتشييد المدارس أو الصرف عليها وكل ما مطلوب من الدولة (الموافقة) على اتاحة الفرصة للطفل الكُردي ان يتعلم وليس هناك اشارة الى ان تكون لغة التعليم بالكُردية.

ويذكر تروتر ايضاً، التمس هؤلاء في العريضة نفسها ان تعفيهم الدولة بشكل نهائي من الخدمة العسكرية الاجبارية على غرار المسيحيين في الدولة العثمانية مع إستعدادهم لدفع الخدمة بمبالغ أكثر مما يدفعها المسيحيون (٣).

ان البحاثة الروسي كارجوف يضع الشعب الكُردي امام معيار يقسم بموجبه الكُرد الى ما يشبه المتصدين وغير المتصدين، هذا ما نستشفه من تقسيم كارجوف.

انه كان يعتقد ان الكُرد المستقرين (الفلاحين) ومربي المواشي (سكان السهول) يرضخون للسلطة ويتحملون كل الاعباء التي تفرضها السلطة عليهم بما في ذلك الجندية، ويطلق على هذا الصنف من الكُرد بـ(الرعية) وهذه الرعية على مذهب كارجوف لاتستطيع ان تقرر أي فعل حاسم في مصير الشعب الكُردي، بل بقي الفعل الثوري بيد رؤساء العشائر الرحل وشبه الرحل (١٥).

يذكر خالفين من خلال اطلاعه على إنطباعات بيرزن (١٨٥٦) في دراسته الموسومة (الطريق الخطر)، في ظل الترك فان النظام معدوم عند الكُرد فهم لايتمتعون بحقوق المواطنة ولقد ذهل بعض الرحالة من هول الوحشية والدكتاتورية التي تمارس بحق الشعب الكُردي، لقد اورد خالفين في كتابه إنطباعات السائح الإنكليزي رامزي كانموذج لدكتاتورية الادارة التركية حتى على صعيد الادارة المحلية بمستوى قائممقام، ان رامزي هذا يذكر الاسلوب الوحشي الذي فرض به القائمقام ما يسمى بـ(النظام) فعلى الرغم من ان هذا المسؤول لم يكن يملك صلاحية اعدام، فانه كان يذبح كل واحد وقعت يده عليه وهو على ما يبدو كان يقاضي عدداً من الناس من قبيلة (خينام) حتى ان بعض الحاضرين ماتوا بعد المذبحة، ويبدو أن البعض مات ذعراً... ان رامزي يسمي مذكراته هذه بإنطباعات عن تركيا عام ١٨٩٧ (١٩).

اما ديتيل في مذكراته يوميات سياحية في الشرق ١٨٤٢-١٨٤٥ والتي جاءت في كتاب خالفين ايضاً فيحدثنا كشاهد عيان عندما زار مدينة الموصل في أربعينيات القرن التاسع عشر، انه راى كردياً متهماً بمعارضة الحكومة وضع في ساحة المدينة المركزية على المحرقة

ويقول ديتيل، لقد مات موتاً رهيباً. وكذلك يذكر ديتيل حالة أخرى من حالات الارهاب التركي للكرد (باسم القانون) فقد شاهد اعدام احد الأكراد الذين اشتركوا في انتفاضة وطنية كما يسميها ديتيل نفسه، إذ غطس المتهم حياً في قدر من الماء المغلي (١٩).

يمكن ان نستشف حرارة الموقف في كُردستان في مطلع القرن التاسع عشر من خلال ما يعرضه خالفين عن حقيقة الأوضاع السياسية لاسيما في ظروف الحرب بين روسيا وتركيا. فعلى الرغم من ان روسيا لم تكن تهتم بالكُرد في البداية على خلاف تركيا وإيران، لان ملوك إيران وسلاطين تركيا -كما يذكر خالفين- كانوا دوماً ينظرون الى القبائل الكُردية على انها مواد الحرب ووقود المدافع!! (٤١) ونستنتج مما يذكره خالفين ان هؤلاء الملوك والسلاطين كانوا للاسف يستغلون الكُرد من خلال الهدايا الثمينة التي كانوا يهبونها الى رؤساء العشائر والإقطاعيين المتنفذين (٤٤-٥) ولكن على ما يبدو فان العلاقة بين الروس والكُرد نشأت من خلال اتصال الشخصيات الكُردية المتنفذة بالقادة العسكريين سيكون في ذكرها هنا إبتعاد عن حدود موضوع هذا الكتاب ولكن يمكن ان نصل الى نتيجة، ان موقف الكُرد كمحصلة كان موقفاً متردداً أو متذبذباً مع الروس فلقد استلم رؤساء الكُرد الهدايا والعطايا الروسية واطربتهم وعود الوجاهة ولكن سرعان ما كانوا ينقلبون للقتال الى جانب تركيا.

ان الصراع بين المكاسب المادية والسياسية من جهة وبين النوازع الدينية من جهة أخرى كان على ما نعتقد يقف وراء هذه المواقف الكُردية المتذبذبة.

يتحدث خالفين عن إمارة بدرخان الكُردية التي أسست عام ١٨٤٣، ويصف خالفين الأمير بدرخان بالشخص الفذ المنتمي الى عائلة اقطاعية عريقة مما يميزه عن القادة الكُرد السابقين. انه على النقيض منهم فقد كان ضد التنازع والاحترابات الداخلية وكان يحمل هماً كردياً وهو مسألة النضال من خلال توحيد الكُرد وتوحيد القبائل المتفرقة ضد العدو الأساس المشترك (٥٩)، وقد كتبنا في ذلك ضمن سلسلة (صفحة مشرفة من تاريخنا السياسي) في جريدة التآخي الغراء ١٩٧٢، والتي كنا ننشرها تباعاً.

ويعود خالفين ليذكر إنطباعاته عن هذا القائد الكُردي فيصفه بالسياسي الدبلوماسي الجيد إذ استطاع الحصول على تأييد زعيم اكراد حكاري نور الله بك ورئيس اكراد مكس خان محمود.

لقد استثمر بدرخان فرصة استياء الشعب الكُردي في كُردستان تركيا من وطأة الضرائب التركية ومن التجنيد وكذلك الاستياء الذي جاء نتيجة عزل الزعماء الكُرد وتعيين موظفين أتراك ليحلوا محلهم فاسس بدرخان باشا جيشاً كردياً قوامه كل الهاربين من التجنيد التركي الاجباري كما ان رؤساء القبائل ساعدوه في إتجاهه القومي هذا واصبح بدرخان القائد الحقيقي

في المنطقة وحظي بتأييد كل الكُرد وكذلك الأرمن والكلدان والآثوريين. ان خالفين يعتمد في هذه المعلومة الأخيرة على ما كتبه سافرستيان في مذكراته (٥٩).

اما ديتيل فقد ابدى إعجابه من خلال إنطباعاته عن مستوى الأرمن والإستقرار اللذين حظيت بهما إمارة كُردستان حتى ان مثلاً شعبياً نشأ في تلك الفترة كما يذكر ديتيل (في وطن بدرخان يسافر الطفل وفي يديه الذهب).

يذكر ديتيل ان الكُرد اخذوا يفضلون الرحيل للعيش في كنف إمارة بدرخان لما تتمتع به من امن وطمأنينة وعدل وكان هذا الأمير قد وضع في قوانينه وشروطه وتوصيفاته للمواطن الكُردي في امارته وتمنح الارض للمواطن على وفق هذه القوانين، كما كان من شروط المواطنة الكُردية ان يكون للكردي حصان جيد وبندقية وسيف ومسدس (٦٠) ونستنتج من هذا ان بدرخان على الرغم من توطيده الامن والإستقرار لكنه كان يحتاط الى ما يمكن ان يخفيه المستقبل له ولامارته وشعبه، ربما هذه الحيطة جاءت من استشرافه لتاريخ الكُرد ودور الجناة الأجانب المحيطين بكُردستان في امتلاخ كل وردة كردية تجاهد ان تتفتح على صفحة التاريخ.

وهكذا فالمواطن الكُردي حتى في حياته المدنية جندي ومشروع قتال ومتأهب للدفاع عن كيانه الكُردي في فلسفة الأمير بدرخان.

لم يُكنّ الأمير حقداً أو ضغينة للاقليات الدينية في المنطقة، لكن كثرة المؤامرات والدسائس المحيطة بهذه التجربة القومية استطاعت ان تنفذ الى اللباب وان تفرض رأيها في خلق أكثر من شقاق في الإمارة فالإمارة محاطة بحلقة من المؤامرات العثمانية تحيط بها حلقة اوسع من مؤامرات دولية، لان قيام إمارة كردية طموحة قضّت مضاجع الكثيرين وكان جزءاً من المؤامرة الاستنجاد بالعالم الاوروبي تحت مظلة انقاذ الاقليات الدينية أي المسيحيين من تعصب بدرخان الاسلامي وهذا التعصب في الحقيقة بدعة اختلقها اعداء الكُرد. هذه حقيقة يجب ان تقال. انها ليست مسألة عواطف بل كان لابد من خلق مشكلة للامير بدرخان فخلقوا له مشكلتين الأولى هيأوا له صراعاً دينياً وذلك من خلال البعثات التبشيرية ونشاطاتها ثم خلقوا له صراعاً عائلياً على السلطة.

لم تكن ثورة بدرخان وتأسيسه الإمارة الكُردية معزولة عما يجري حولها فالنزاع قائم بين تركيا وإيران وتدخلت كل من بريطانيا وروسيا في حل النزاع وسبب التدخل هو ان مصالح بريطانيا التجارية باتت مهددة بسبب هذا النزاع.

وقد قررت تركيا عام ١٨٤٤ القضاء على دولة بدرخان بك فاعدت العدة لذلك وبدأت بإثارة النعرات الدينية في كُردستان ونشطت البعثات التبشيرية واستطاعت شيئاً فشيئاً ان

تؤلب ابناء المنطقة الواحدة بعضهم على بعض ولكي تضمن تركيا مساندة وتأييد الدول الكبرى (وهي دول مسيحية) شجعت المسيحيين على إقامة شكوى ضد الأكراد عند القنصل الإنگليزي في الموصل (٦٢) أي ان تركيا شجعت مواطنيها المسيحيين على إقامة شكوى على بدرخان عند دولة أخرى لانها سكتت عن شكوى مواطنيها المسيحيين ضد مواطنيها المسلمين ضمن حدودها. وما دخل البريطانيين في ذلك. فهل يجوز ان يشتكي رعايا دولة ما على رعايا نفس الدولة عند دولة أخرى؟

ان خالفين يذكر ان بريطانيا نفسها كانت قد اقترحت على الامبراطورية العثمانية التدخل في شؤون كُردستان بعد ان وصلت الشكوى إلى القنصل البريطاني إذ طلبت بريطانيا من تركيا لا بل من السلطان نفسه إتخاذ تدابير شديدة ضد بدرخان واتخذت تركيا فعلاً تدابيرها ضد إمارة بدرخان (٦٢) اننا على ثقة بوسع القاريء ان يعي هذه الدورة، تركيا تؤلب الأكراد والمسيحيين بعضهم على بعض وهي من جهة تشجع الأكراد باسم الدين ولكنها تشجع المسيحيين في الوقت ذاته على الشكوى ضد الأكراد عند بريطانيا وكذلك عند روسيا القيصرية ثم تقوم بريطانيا بالطلب من تركيا القضاء على إمارة بدرخان وكيانه فتحقق تركيا (المسلمة) طلب بريطانيا فيعمل المدفع التركي والسيف التركي في رقاب الكُرد حتى المواطنين الامنين من دون رحمة بعد ان خلقت شقاقاً بين الاسرة البدرخانية نفسها.

ان خالفين لاينسى ذكر الإنطباعات التي واكبت المؤامرة الكبرى على الكيان الكُردي فهو يذكر، انه على الرغم من المقاومة البطولية للثوار الأكراد فقد تقررت نتيجة الصراع (لصالح الدولة) لانعدام التكافؤ في القوى فبينما كانت القوات الكُردية تستنزف طاقاتها كانت الدولة تعزز باستمرار الطاقة القتالية والمعيشية للقوات التركية، وصادف ان انتشر وباء الكوليرا في تلك المدة وعلى الرغم من كل هذا التفاوت في القوى ربما كان بالإمكان ان تتراجع القوات التركية امام الصد الكُردي لولا ان الدولة استطاعت ان تخترق القيادة بشراء الضمائر واستغلال الخصومات العائلية، وثمة ما توصلت اليه الدولة آنذاك شراء ولاء يزدان الساعد الايمن لبدرخان (٦٢). مما اضطر بدرخان الى الاستسلام.

لقد لعبت البعثات التبشيرية في المنطقة ادواراً سياسية تحت مظلة التبشير بالمسيحية فيذكر خالفين عن مذكرات السائح الإنگليزي لينج عن تجواله في المنطقة، انه لم يكن هدف البعثات التبشيرية تحويل الناس الى مسيحيين فهذا لم يشكل هدفاً خاصاً أو سياسياً بل كانت الوظيفة تسهيل التغلغل الرأسمالي واسترقاق السكان المحليين هو الهدف الرئيسي.

كل هذا كان يجري باسم نشر التعليم ثم بدأ هؤلاء المبشرون باعداد ابحاث علمية في كُردستان شملت اللغة والعادات وقد انتشرت مواد الدعاية الاميريكية بشكل واسع في

كُردستان.

وكان يقابل هذه الفعاليات القلق الروسي القيصري من تغلغل المراكز التبشيرية الاميريكية فنشطت الدراسات الروسية ايضاً حول كُردستان والأكراد والجغرافية الطبيعية والبشرية للمنطقة وقد كان لدور جيركوف ومساعده الدور الكبير في تطوير مثل هذه الدراسات آنذاك. اذن هي مسألة صراع وإستعداد للتوغل من قبل قوتين كبيرتين تنتظران ما ستؤول اليه أوضاع الامبراطورية المنهكة - تركيا.

لقد عانى الكُرد من زجهم في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل لاسيما خلال التسلط العثماني. والمسألة ليست كما يعتقد البعض ان الكُرد كانوا مشاريع قتال جاهزة بيد العثمانيين، ان الوجه الثاني من العملة نادراً ما يذكر ولعله بتر في بعض عمليات الترجمة، وان عمليات البتر في المراجع الخاصة بالكُرد ليست بالامور الغريبة فكثيراً ما يكون مصير موقف ما رهينة مروءة المترجم ومزاجه وإتجاهه بازاء الكُرد، هذه مسألة خارجة عن اطار هذا الكتاب ولكنها حقيقة وذكرناها هنا لما لها من علاقة بتمرد الكُرد على الانخراط في الجيوش العثمانية فعلى سبيل المثال، يذكر خالفين عن موقف الكُرد في الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨ انهم (الكُرد) لم يظهروا على الرغم من وجودهم في صفوف الجيش التركي أي رغبة في القتال لصالح الامبراطورية العثمانية الغريبة عنهم وترك قسم كبير منهم الجيش ببساطة حاملين معهم الأسلحة من نوع مارتين الإنكليزية وكذلك الذخائر (١٠٦).

يؤكد خالفين في موضع اخر من كتابه، ان المحاربين الأكراد الذين بقوا في صفوف الجيش امتنعوا -كقاعدة- عن الاشتراك في الهجمات ويعزز قوله هذا بما كتبه الرائد الإنكليزي نورمان الذي كان يعمل في قوات مختار باشا أو عمل الضباط الإنكليز متخفين تحت اسماء كاذبة وكانت بعض هذه الاسماء شرقية أو إسلامية، على اي حال يذكر نورمان الذي كان في قوات مختار باشا إذ يقول (متأسفاً) ان الأكراد اظهروا رغبة قليلة في القتال الحقيقي (١٠٤-٧).

ان من يقرأ خالفين وما احتواه كتابه من مراسلات عسكرية وادارية يشعر تماماً بقلق وإهتمام الترك والإنكليز بمسألة فتور اندفاع الكُرد للاشتراك مع القوات التركية في حربها مع روسيا، والحقيقة فان هذا القلق وكثرة المراسلات في هذا الموضوع تعبير عن إعجاب هؤلاء بالمقاتل الكُردي وادراك كامل لما يعنيه اشتراك الكُرد في معركة مع الترك ضد اي جهة، فعلى سبيل المثال، والامثلة كثيرة جداً في هذا المجال، جاء في كتاب خالفين ان قوات فائق باشا عندما حاصرت مدينة بايزيد التي اعتصم فيها الروس إذ كانت قواته تبلغ احد عشر الف يشارك في صفوفها سبعة الاف من الجنود الأكراد المسلحين غير النظامين (١٠٥). وهم

يعرفون جيداً ان لولا اشتراك هذا العدد من المسلمين الكُرد فان ما تبقى من قوات فائق باشا – أي أربعة آلاف تركي هم في غير مستوى مجابهة الروس الذين اضطروا الى الانسحاب تاركين بايزيد وقلعتها الحجرية.

الحقيقة ان إستهتار الدولة العثمانية بلغ حداً كبيراً بإزاء الكُرد، اننا يمكن وبسهولة ان نستنتج من كتابات خالفين ومن المصادر والوثائق التي استخدمها في كتابه، ان الدولة العثمانية كانت تنظر الى الكُردي وكانه مشروع قتالي دائم بادنى كلفة. نعم ان الكُردي مخلص لرئيس عشيرته أو رئيس قبيلته وان التأييد أو التواطؤ بين رئيس القبيلة والحكومة كان ينعكس بالطبع على القبيلة نفسها لان القبيلة أو افراد القبيلة هم الوقود الحقيقي المستخدم في حروب الدولة، ولكن عندما يصل المقاتل الكُردي الى قناعة من انه لايعني شيء الا ان يقاتل وأحياناً حتى بذخيرته الشخصية وان قتاله ليس من اجل قبيلته بل من اجل الدولة عبر قبيلته فان التمرد يطفو، ولا عجب ان نجد حالات تمرد كردي على الرؤساء أو عدم الطاعة ومن ثم التمرد التام على الضباط الأتراك واحجام عن تنفيذ الاوامر.

لقد ذكر كولباكين ضمن كتاب خالفين وهو يصف المحاربين الكُرد في عام ١٨٧٧، ان الفرسان الكُرد كانوا قليلي الطاعة لرؤسائهم ولم ينفذوا ابداً اوامر الضباط الترك ويعود سبب هذا الموقف على وجه التحقيق الى ان القيادة التركية تركت المحاربين الأكراد ليقوموا بتموين انفسهم بانفسهم دون ان تتكلف اعطاءهم اي ذخيرة (٧٥٦).

الحقيقة بدأ الكُرد يفهمون اللعبة جيداً انهم يدخلون حرباً لا مصلحة لهم فيها، ففي الوقت الذي يعلن فيه السلطان الحرب على روسيا يطلب الجهاد باسم الاسلام ويؤجج النوازع الدينية لدى الكُرد للانخراط في هذه الحرب الضروس، بدأ الكُرد يشعرون بوجود ضباط إنكليز بين صفوف الجيش التركي وان الامبراطورية التركية العثمانية (المسلمة جداً) التي تحارب (الكفار) أي دولة قيصر لاتدخر جهداً من استلام المعونة من دولة ملك بريطانيا!

ان الإنعكاسات السياسية الكُردية التي يمكن ان نلحظها بوضوح في تلك الفترة ان الشيخ عبيدالله الشمزيني بدأ يتحرر من اللعبة العثمانية فالمسألة ليست مسألة دين والشيخ عبيدالله شخصية دينية معروفة بل المسألة مسألة صراع على المصالح في المنطقة وما الكُرد الا (فحم بشري) تحت مرجل الحرب الطاحنة. واذا كان خليفة الله وظله على الارض سلطان الامبراطورية هو ليس الملتزم فلماذا يصبح الكُرد وقود هذا (الجهاد) وضحيته.

من هنا لم يجد الشيخ عبيدالله الشمزيني ما يمنع من ان يفاوض الروس كمحاولة لضمان حقوق الشعب الكُردي.

ان ما يدلل على ما ذهبنا اله رسالة كريبيل في أيلول ١٨٧٩ وهي من ارشيف السياسة الخارجية الروسية التي ورد ذكرها في كتاب خالفين ان التقى مبعوث الشيخ عبيدالله الشمزيني الشيخ محمد سعيد بالقنصل الروسي (كامسارا كان) الذي قال له بان السلطات التركية (عاجزة عن حفظ النظام) (١١٩-١٢٠).

ويذكر خالفين اعتماداً على المصدر نفسه ان (كامسارا كان) القنصل المحلي لاحظ بناء على معلومات قدمها مبعوث الشيخ عبيدالله يعتبر الدفاع عن الشعب الكُردي واجباً معنوياً من واجباته لان الكُرد يرون فيه -أي في الشيخ عبيدالله- حامياً مباشراً لهم. وفي ضوء ذلك فان الشيخ قد كلف مبعوثه وخوله ان يفاتح القنصل برغبته في الحصول على مساندة روسيا، وهي دولة لها نفوذها الواسع في المنطقة على حد تعبير المبعوث، اما اذا رفضت روسيا إبداء العون للكرد فانه أي الشيخ سيكون مضطراً لقبول حماية الامبراطورية البريطانية.

وقد ختم مبعوث الشيخ رسالته الشفهية بعبارة ذات مغزى إذ قال انه في حالة نشوب حرب بين روسيا وبريطانيا في منطقة آسيا الصغرى فان الأكراد يستطيعون ان يلعبوا دوراً لانهم -أي الكُرد- قادرون على السيطرة على المسالك الجبلية في هذه الاقاليم كافة.

ولكن للاسف فان القنصل الروسي أوصى برسالته المرفوعة الى السفير في استانبول برفض التماس الشيخ الكُردي وعوضاً عن ذلك يتحتم -بحسب رأي القنصل- مساندة المسيحيين في شرق تركيا الذين يصفهم القنصل في رسالته بانهم يتميزون بالرفاه والميل الى النظام (١٢٠-١٢١)، هذا ويستغرب المرء حقاً من هذا العداء الروسي أو البريطاني للكرد في القرن التاسع عشر الذي عاد ليتكرر في القرن العشرين.

ليس للكرد مصلحة مع الروس وليس لهم مصلحة مع بريطانيا ولكنهم كانوا على كامل الإستعداد لوضع يدهم بيد من يناصر قضيتهم ولم تستطع بريطانيا ان تتفهم القضية الكُردية في القرن التاسع عشر أو انها أصمّت اذنيها عنها اما في القرن العشرين فقد كانت لها مواقفها المتذبذبة غير المحسومة تجاه الكُرد.

فاذا كانت بريطانيا قد عادت بدرخان باشا تحت غطاء الدفاع عن المسيحيين الذين اضطهدهم بدرخان -وقد بولغ في ذلك طبعاً- فاننا نجد في انتفاضة يزدان شير التي ضمت الآثوريين والأرمن وغيرهم من شرقي تركيا بنضال مشترك ضد تركيا كما يشير خالفين ان بريطانيا اسهمت بفعالية مع الجيش التركي للقضاء على الانتفاضة الكُردية (٧٩).

ويذكر خالفين ان الإنكليز الذين كانوا في اماكن قريبة من مناطق الاحداث الجارية قدموا المساعدات المباشرة العملية للقوات الحكومية في حربها مع الأكراد مثلاً قاد ماكون البريطاني

الذي كان حاضراً هناك عمليات المدفعية التركية المستخدمة لاجتياح التحصينات الكُردية وفي هذا الوقت كانت قوات تركية ضخمة متمركزة في كُردستان وقد استطاعت القوات التركية مستخدمة أسلحة جيدة تلقتها بغزارة من ترسانات الأسلحة الإنكليزية، احتلال المدن الكبيرة ونقاط تقاطع الطرق ومطاردة الثوار الى الجبال (٨١).

ان جنون المصالح اعمى بريطانيا على ما يبدو فوضعت يدها بيد من يضطهد الشعب الكُردي ليتضاعف الاضطهاد هذه المرة فتركيا تضرب الكُرد وبريطانيا تعزز القوات التركية بالسلاح الحديث وبالخبرات الفنية وبالضباط البريطانيين، كان الله في عونك يا ايها الشعب الكُردي!

يبدو ان الكُرد كانوا ضحية المصالح الاقتصادية والخطط الستراتيجية التي كانت بريطانيا ترسمها سواء في توسيع رقعة المصالح الاقتصادية وتوفير اسواق جديدة لها في الشرق أو في إختصار الطريق الى الهند وكانت كُردستان من اهم المواقع التي يمكن للخط الحديدي المقترح ان يخترقها.

ان ما يؤيد قولنا هو ما ذكره فارلي عن تركيا المدنية والذي اقتبسه خالفين إذ يذكر فارلي مفسراً موقف الحكومة البريطانية في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر تجاه تركيا انها أي بريطانيا استطاعت فرض معاهدة تجارية على تركيا كانت بريطانيا هي الرابحة منها ففي عام ١٨٢٧ كان استيراد تركيا من إنكلترا يبلغ أكثر قليلاً من (٥٣٢) الف جنيه استرليني في حين وصل عام ١٨٥٣ الى (٢ , ٥) مليوناً واخذ يرتفع باضطراد وسرعة حتى بلغ عام ١٨٦٠ (٥ , ٢) مليوناً و(٧ , ٥) مليوناً عام ١٨٦٢ و(٨) ملايين عام ١٨٦٩.

نعتقد ان هذا كاف لان تساند بريطانيا تركيا في كل ما يقلق تركيا وكان الكُرد دائماً مبعث قلق للامبراطورية العثمانية ولكن ما يؤخذ على روسيا خلال القرن التاسع عشر انها لم تستطع ان تستفيد من الكُرد في عدائها لتركيا على الرغم من ان الكُرد حاولوا أكثر من مرة مغازلة روسيا ويبدو لنا ان المؤسسات الدينية المسيحية في كُردستان كانت قد شوهت وجه الحقيقة الكُردية عند روسيا مثلما شوهتها عند بريطانيا.

ان إنطباعات الدوائر الدبلوماسية وكذلك الرحالة الذين زاروا كُردستان في حقب مختلفة من القرن التاسع عشر تؤكد الحالة المزرية التي كان يعيشها الكُرد سواء في تركيا أو إيران.

لقد كان المجتمع الكُردي ضحية صراع هاتين القوتين، وكل قوة منهما كانت تنهب من كُردستان خيراتها وإمكاناتها المادية والبشرية. فلا نستغرب إذ ما قرأنا في كتاب خالفين ان قوات عسكرية إيرانية مزودة بالمدافع كانت تجوب في القرى الكُردية لكي تخطف قطعان

الاغنام والمواشي من اصحابها ثم تحرق بيوت اصحابها. هذا ما جعل الشيخ عبيدالله الشمزيني تشور ثائرته ويطلب من تركيا مساعدته في الحصول على تعويضات إيرانية لما تقترفه إيران في كُردستان (٨٨). وعلى الرغم من تعاطف تركيا السطحي فان إيران مضت في غيها فهي لم تعوض الكُرد بما قامت به بل واصلت نهب السكان الكُرد (٨٩).

اما الوضع في تركيا فكان وضعاً يرثى له فقد عاشت الجماهير الكُردية في تركيا حالة من الفقر الشديد وهي ترزح تحت ثلاث قوى (الاقطاعيون الكُرد، والاقطاعيون الترك، والمستعمرون الأجانب) التي كان يهمها (تأديب) الكُرد.

لقد عانى الشعب الكُردي كثيراً من فرض الضرائب والاتاوات عليه ومن القلق المستمر في نهب قطعانهم واموالهم وتهديم بيوتهم على رؤوسهم هذه كانت سياسة (الباشوات) في المنطقة.

ان رسالة القنصل الروسي في ١٨٧٣ تشير الى ان تصرفات ادارة السلطان ادت الى اضطرار الكُرد الرحل في وادي وان مثلاً على ان يقوموا باعمال سلب صغيرة وعمليات نهب وتحليل القنصل ان الدولة تفاجئ الكُرد بطلب الضرائب نقداً ولذا يضطر الكُرد للنهب والسلب لترضية الدولة (٨٩).

اما القنصل العام الروسي في ارضروم اوبرميلر فقد كتب في شباط ١٨٧٦ الى العاصمة بطرسبرغ حول أنواع الاتاوات التي فرضتها السلطات التركية على الأكراد وغيرهم من قوميات تركيا الشرقية -كما يسميها القنصل- بمناسبة حرب البلقان، تبعث الحكومة يومياً اعنف البرقيات تطلب باصرار ارسال المال ثم المال ثم يشير القنصل في رسالته عن حالة الاحتجاج العام الذي ساد كُردستان بسبب فرض التجنيد الاجباري على الكُرد.

لقد رفض الكُرد التجنيد الاجباري وكذلك رفضوا دفع الضرائب المضاعفة وفي بعض المناطق ثار الكُرد على بعض الرؤساء الذين لعبوا دور العملاء لاستانبول.

لقد هجم الكُرد على الإقطاعيين العملاء والقائمقامين المحلين مثل جلابي بك وتخلصوا منهم ومن أقاربهم. هذا ما حدث في منطقة ديرسيم وموتكين وخوم (٩٠).

لقد عانى الكُرد من مشكلة تحديد الحدود بين إيران وتركيا وكل من هاتين الحكومتين كانتا تنزعان الى التوسع والى الحصول على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي والحقيقة فان هذه (الأراضي) هي كُردستان وكما يقول المثل (بين المطرقة والسندان ضاعت تنهدات الحديد) وكل فريق يدعي باسم السكان المحليين وما من احد يسأل السكان المحليين (الكُرد) ماذا يريدون؟؟

هناك اشارة من خالفين تعول بدورها على رسالة اوبرميلر عن دور الإنكليز في هذه المسألة

فقد جهدت الدوائر الحاكمة الإنكليزية استغلال الوضع المعقد لتقوية نفوذها في تركيا. ان القنصل الروسي اوبرملير في رسالته الى استانبول يوضح اخطر دور لبريطانيا في قضية الشعب الكُردي في القرن التاسع عشر وربما هذا الدور بنيت عليه الادوار اللاحقة التي دخلت القرن العشرين التي كانت ولم تزل مبعث تساؤل القراء الذي لايخلو من دهشة عن موقف الإنكليز بازاء القضية الكُردية.

ان رسالة اوبرميلر المرسلة في ٢٨ شباط ١٨٧٣ الى السفير الروسي في استانبول تذكر نصاً ان الدور الأول في المسألة الكُردية لايلعبه الأتراك وانما الإنكليز ويضيف اوبرملير في رسالته هذه الى ان القنصل الإنكليزي المحلي في المنطقة لديه ادق التعليمات حول مهمة القضاء التام والى الابد على المقاومة الكُردية. ولاجل هذا الغرض فان السفير الإنكليزي في العاصمة التركية ايليوت يملك قائمة باسماء الأكراد المتنفذين وهو في سبيل استحصال اوامر نفيهم من كُردستان (٩٥).

ان الظروف التي مرت بها كُردستان في القرن التاسع عشر كانت ظروفاً عصيبة ويبدو ان المجاعات وصلت ذروتها في المجتمع الكُردي في الثمانينيات من ذلك القرن ففي رسالة ياكيمانسكي المنشورة في كتاب خالفين تفيد ان الفلاحين الكُرد اضطروا لان يقاتلوا على الذرة واوراق الاشجار كذلك بدأوا بالهجوم على عنابر الحبوب والحصول على الغذاء عنوة ويشير كذلك في رسالته الى ان الناس في الجزيرة والموصل يفتقدون الخبز تماماً ويأكل الناس لحم الحمير ويتركون اطفالهم كما ويذكر ياكامانسكي، تهديد الأكراد بالاستيلاء على مخازن الحبوب وعلى البيوت التي يتوقع وجود مخزونات من الحبوب فيها (١٩٣).

وعلى الرغم من كل هذه الظروف فان حكومة السلطان كانت تواصل وبدون رحمة وبقسوة متناهية جمع الضرائب وأنواع الاتاوات من السكان وبدلاً من ان تقوم الدولة بمعالجة حالات القحط والمجاعة في كُردستان فان القوة التركية المرسلة الى اقليم الجزيرة قامت بنهب حقيقي للفلاحين. ان نائب القنصل في وان له رأي موثق في ارشيف السياسة الخارجية الروسية وهو ان سبب الجوع في كُردستان كان عائداً الى الاهمال الاجرامي للادارة العليا المحلية أي الى الحكومة وفي موقع اخر يمكن ان نستشف موقف الموظفين القيصريين إذ لم يكونوا يرغبون بإسداء أي شكل من العون لفقراء الكُرد.

ومن الإنطباعات الصارخة التي سجلها ياكيمانسكي وهو يقوم الموقف في دياربكر عام ١٨٨٠ إذ يذكر ان الكُردي الذي عصره الجوع والبرد في وقتنا الحاضر الذي لم يتلق اية مساعدة من حكومته، يقذف بنفسه مدفوعاً بلهفة اليأس الى تلك الجهة التي تأخذه اليها غريزة المحافظة على النفس من خطر الموت جوعاً (١١٤).

في عام ١٨٨٠ بدأت السياسة البريطانية تتغير بازاء الكُرد وعلى ما يبدو ان بريطانيا ارادت إقامة علاقات وثيقة مع الكُرد وقد تجلى ذلك في الزيارات التي قام بها ممثلو السياسة البريطانية آنذاك.

وقد داعب الامل الشيخ عبيدالله الشمزيني في توحيد القبائل الكُردية في اقليم واسع على تقاطع حدود روسيا وإيران وتركيا.

ان خالفين يذكر لنا الغاية من المجاملة البريطانية للكرد آنذاك إذ يقول ان الدوائر البريطانية الحاكمة حاولت إستخدام الأكراد لتأزيم الأوضاع في الشرقين الاوسط والادنى ولغرض توسيع نفوذها.

ويذكر كامساراكان ان إنگلترا قررت ان تعتمد على هذا العنصر في اسيا الصغرى لهدف مفهوم هو استغلاله لاغراض حربية.

وعلى الرغم من تطور العلاقة بين الدوائر البريطانية والرؤساء الكُرد الا انها كانت قصيرة الامد ولم تدم وفي إعتقادنا ان السبب في عدم دوامها إختلاف الأهداف فكان للكرد هدفهم القومي وإقامة كيانهم المستقل بينما كان هدف بريطانيا السيطرة على المنطقة وتمرير مصالحها الستراتيجية (١٢٥).

سون

يمكن ان نلمح الاشارات السياسية عند سون من بداية رحلته في كُردستان في العقد الأول من القرن العشرين، أي من تعرفه بعض اكراد عشيرة الملي في كُردستان تركيا، فقد لاحظ سون ان العائلة الكُردية تقلق من استضافة شخص غريب غير كردي، إذ يذكر سون ما ان اجاب بالكُردية مبيناً انه لايفهم التركية حتى بدت عليهم الطمأنينة والرضى كثيراً وعدُّوه (اخاً كردياً).

ولابد ان لهذا الشعور بالرضى باستضافة شخص كردي له مبرراته السياسية والقومية، ولاشك ان هذه العوائل الكُردية كان يسوءها استضافة الأتراك وربما كان معظم هؤلاء الأتراك من الجندرمة أو الموظفين أو المدنيين الاستعلائيين على الكُرد، وبإختصار فان ما ذكره سون من إنطباع عن العائلة الكُردية المليئة التي حل ضيفاً عليها، يرسم صورة لمناخ سياسي في تلك الفترة.

واذا كانت هذه العائلة الكُردية قد اعتقدت ان سون كردي ولكن من قبيلة أخرى، فان سون كان قد عرف بنفسه في استنبول لاحد الأكراد على حقيقته -أي اوروبي- ولكن يجيد

الكُردية. ان هذه الهوية عقلت لسان الكُردي من فرط الدهشة، على حد تعبير سون، فهذا الكُردي لم ير أو يسمع عن اوروبي يتكلم الكُردية. وربما لم يكن سبب انفعال الدهشة ان الموقف جديد وحسب بل لان الكُرد كانوا في تلك الفترة يحلمون بإيصال صوتهم وواقعهم الى ما وراء الترك والفرس، فالترك والفرس كانا دوماً يعملان عمل الكماشة عسكرياً وسياسياً، لذا عندما يلتقي احد الأكراد اوروبياً يتكلم الكُردية لابد وان يكون الموقف مثيراً لشجون سياسية تعتمل في الذات الكُردية.

لقد كان الكُرد يخضعون فضلاً عن اضطهاد الدولة المباشر لهم، الى مختلف العمليات التي من شأنها ان تقوض الوجود الكُردي وعلاقة هذا الوجود بالاقوام الأخرى من خلال توريط الكُرد بعمليات قتالية ومذابح من خلال تأجيج المشاعر الدينية واثارة الفتن بين الكُرد المسلمين والكُرد المسيحيين من جهة وعمليات غسل ادمغة الكُرد بازاء وجودهم القومي حتى اصبح الكُردي جيلاً بعد جيل تسره النكتة التي تصف فيه حالة (البلاهة) وهذا ما اشار اليه في وصف الكُرد. ان ما يجعلنا نذهب هذا المذهب هو ملاحظة سون، لا بل أكثر من ذلك فقد لاحظ سون ان الكُردي يحفظ بعض اشكال السجع الذي يحط من قدر لغته لقد ذكر سون بعض الابيات الشعرية التي قال عنها، دأب القوم في كُردستان على انشادها وهي:

العربية رنانة... والتركية منجزة... والفارسية مسكرة... والكُردية كريهة...

نحن نعتقد ان مثل هذه الابيات التي لم نكن في الواقع قد اطلعنا على اصلها الكُردي بيد اننا نعتقد ان سون كان قد سمعها فعلاً ومن افواه الكُرد انفسهم، ما هي الا جزء من عمليات غسل الدماغ الكُردي، المباشرة وغير المباشرة، المقصودة وغير المقصودة عبر قرون طويلة من السياسات الحاكمة للكرد من اقوام غير كردية يهمها كثيراً تغييب العقل الكُردي وانتزاع كل اشكال الثقة بالنفس والاعتداد بالذات واستلاب الثقافة عند الكُردي فهذه اسس استبقاء الهيمنة، وهذه حكاية بالية عانت منها الشعوب والمجتمعات المضطهدة عبر التاريخ.

يلاحظ سون في مذكراته ان الكُرد في تلك الفترة التي زار فيها كُردستان كانوا على اطلاع لا بأس به بالامور السياسية سواء الخارجية أو تلك التي تتعلق بهم وعلاقاتهم مع النظم الحاكمة (٣٠٥).

وربما كانت المعرفة بالسياسة الخارجية أكثر إلتصاقاً برؤساء القبائل والشخصيات الإجتماعية منها بالفلاحين وعامة الناس ومع ذلك فان سون يقارن بين الفلاحين الكُرد والترك ويرى -وهذا رأيه الشخصي- ان الفلاح الكُردي اذكى واعرف بالشؤون السياسية من الفلاح التركي لا بل يصف المزارع التركي بالابله ولايزيد ذكاؤه على ذكاء بقرة، بل هو انقص مرتبة في الإدراك من المزارع الكُردي ثم يستطرد سون ويقول ان الكُرد يحاورون ويناقشون بحق،

وهم يمثلون حالة فاضلة جداً بقدر تعلق الامر بحكومة استبدادية قائمة في تركيا الاسيوية الشرقية، وكُردستان.

وكان سون قد لاحظ اثناء التقائه بطاهر بك الجاف سعة اطلاعه على القصتين البلقانية والكريتية ويثني سون على معرفة وقدرات طاهر بك في السياسة الخارجية ويذكر ان الكُرد ميالون الى النظم الملكية أكثر من ميلهم الى النظم الجمهورية وهم أي الكُرد يرون من الجمهوريين نفراً من الجماعات الناشطة في سبيل الشر مجردين من اي موهبة تؤهلهم لحكم بني جلدتهم، ويعلق سون على هذا الرأي بانه -صحيح الى مدى بعيد- (٣٠٤).

ويعلل سون مناهضة الكُرد للبرلمان التركي لان السلطان عبد الحميد قام بافضل ما يستطيع في وصل الكُرد باستنبول وهي شبه متمدنة وكذلك لم يفرض عليهم الضرائب باطلاً ولم يقبض على رؤسائهم كيداً كما انه زود الأكراد الشماليين بالسلاح والعتاد والبزة الرسمية وسماهم الخيالة الحميدية واطلق لهم العنان (ليعيشوا) في أي مكان يحلو لهم ان يعيشوا فيه سلباً وغزواً.

لانعتقد ان مثقفاً كردياً حقيقياً يوافق على أي شكل من اشكال اضطهاد قوات الخيالة الحميدية لاقليات دينية في المنطقة، ولكن يجب ان لا نحلل الامور وان لايحكم عليها خارج ظروفها الزمانية والمكانية. فالشعب الكُردي كانت تهدده أكثر من مؤامرة، فالأرمن يسعون لإقامة دولتهم القومية ولكن على حساب الجغرافيا الكُردية والآثوريين يتصلون سراً بروسيا لاستعداء روسيا على الكُرد وان صورة الكُرد كانت دوماً مرشحة للتشويه لدى الرأي العام الاوروبي من خلال القنوات المسيحية الدينية هذا كله من جهة ومن جهة أخرى يبقى الكُرد بين فكي الكماشة العنصرية التركية والفارسية وكل من هذين الفكين يحاول ان يمحق الكينونة الكُردية ويمحيها من على وجه الارض.

لذا، فان هذه الامور لابد من ان تؤخذ بنظر الإعتبار فضلاً عن الكثير من المواقف المشهودة لدى عدد من الرؤساء الكُرد في حقن الدماء وتسوية الامور بينهم وبين الرؤساء المسيحيين ومحاولة حل المشكلات (بالتي هي احسن) التي جاء ذكرها في هذا الكتاب.

ومما تجدر الاشارة اليه ان الكُرد المسيحيين عندما كانوا يجدون مجالاً للتواطؤ مع اي جهة ضد الكُرد المسلمين كانوا يهرعون دون الالتفات الى حقوق المعايشة التاريخية. ان الميجر سون يذكر لنا بعض المواقف التي أساسها الخلافات بين المسيحيين انفسهم مما جعل بعضهم يقيمون علاقات مع اقوام غير مسيحية من اجل القضاء على غريمهم المذهبي ومما يذكره سون في هذا المجال حول البطريركية التي جرى نقلها من الموصل الى جولمرك فيقول ان البطريركية التي نقلت الى الموصل قبلاً، جرى الان نقلها الى جولمرك، وهي قرية في قلب كُردستان لاتمتد اليها

غير يد الأكراد، وهم الذين كانوا يعيشون مع بعضهم بعضاً على وفاق وصداقة حتى جاءهم الأتراك والرهبان فازاحوا الامراء القدامى الطيبين الذين اتوا يحكمونهم فيها واغروهم على ان يقلبوا ظهر المجن للكلدان وكان ذلك في سنة ١٨٣٠ (٢٠٠).

ويعلن سون على هذا ان الروم الكاثوليك أي اتباع الكنيسة الرومانية ومركزها روما عقدوا علاقات حقيقية مع الأتراك واضطهدوا الكلدان ويصف سون مثل هذا الامر انه عمل مخز. ان ما نريد ان نصل اليه عبر إنطباعات سون ان كثيراً من مناطق كُردستان كانت مسرحاً وليس مسرحاً واحداً لصراعات دامية منها صراعات قومية ومنها دينية ومنها مذهبية وان الموضوع اعقد من المفهوم السطحي التقليدي الذي يجعل من القضية قضية مذابح بين الكُرد والمسيحيين.

ان سون نفسه يؤكد على شكل من اشكال التعايش المثالي بين الكُرد وبين الارثذوكس في الجبال إذ يقول، كان الحزب الارثذوكسي في الجبال يزداد تأييداً وثقة، لقد عد اتباعه بين ظهراني الأكراد الغلاظ الشداد من محبي الاحتراب ايضاً وكانوا قد اتخذوا اللبوس الكُردي واصطنعوا عادات الأكراد إذ استحال تفريقهم عن اهل الجبال المتوارثين وكان ان عاشوا معهم أي مع الأكراد على افضل ما يكون من الوفاق (٢٠٠).

والحقيقة لنا رأينا بصدد ما يذكره سون عن إتخاذ هذه الفئة اللبوس الكُردي واصطناعهم العادات الكُردية، كما جاء في نص الميجر سون. نحن نقول انهم يلبسون اللبوس الكُردي ولم يصطنعوا عادات شبيهة بعادات الكُرد بل ان هذا هو زيهم وهذه هي عاداتهم الاصلية لا لشيء الا لانهم اكراد اقحاح، فمن كان يعيش في كُردستان قبل الفتح الإسلامي؟ اكراد يتدين بعضهم بالزرادشتية ويتدين الآخرون بالمسيحية وهؤلاء الاخرون كانوا بدورهم يدينون بالزرادشتية قبل ظهور الديانة المسيحية. وجاء الاسلام فدخل الشعب الكُردي في الاسلام واما من لم يدخل الاسلام فلم يصبه ضر وبقي محافظاً على طقوسه وشعائره الدينية. اذن فان المسيحيين هم ليسوا بمسيحيين وحسب بل هم أكراد مسيحيون، إنهم كُردستانيون وطناً ومسيحيون ديناً مثلما هناك مسيحيون عرب ومسلمون عرب في الدول العربية.

لقد استطاع الشيخ سعيد، الذي قتل عام ١٩٠٩ في الموصل من إقامة علاقات جيدة مع السلطان عبد الحميد، ولكن على الرغم من هذه العلاقات الودية فان السلطان لم يستطع الا ان يذعن للضغوط التي وقعت عليه بعد اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ إذ رفعت مذكرة (مضبطة) الى الباب العالي في استانبول والى مركز الولاية في الموصل ضد المرحوم الشيخ سعيد، فما كان من الشيخ سعيد الا الانصياع الى اوامر السلطان وترك مدينة السليمانية وقصد الموصل التي اقام فيها إقامة جبرية ثم قتل فيها مع ابنه الشيخ أحمد اما الشيخ

محمود فقد تم تهريبه الى السليمانية.

لقد قتل الغوغاء الشيخ سعيد في حادثة لم يكن له يد فيها ومع ذلك مازالت القضية غير واضحة فيما اذا كان للدولة يد تآمرية في القضاء على الشيخ سعيد ولكن على ما يبدو كان في رحيل الشيخ راحة للحكومة آنذاك فما من حكومة ترغب في متنفذ. نعود الى سون الذي يصف الاحداث بمنظاره فهو بدوره غير جازم بالجهة التي تقف وراء هذا الحدث ولكنه يوحي بوجود قوى محركة للحدث إذ يقول: واخيراً اغرت الحكومة الشيخ سعيد وهي عارفة باستحالة إستخدام القوة، على الشخوص الى الموصل مع بعض افراد الاسرة، وكان ان احتجز فيها ثم حدثت الثورة بعد ذلك بقليل التي قتل فيها ولم تكشف هوية القاتل وسره ابداً (٢٤٤).

ويعقب سون بعد هذا ان الغوغاء اندفعت وبصف واحد، والظاهر ان ذلك جرى على وفق توجيهات تسلموها اندفعوا الى بيت الشيخ سعيد واقتحموه ودخله نفر منهم وكان ان لقي الشيخ حتفه (٢٤٤) والحقيقة فان مصادر تاريخية أخرى تصور الدقائق الأخيرة من حياة الشيخ سعيد بشكل مغاير لما يذكره سون، فعلى سبيل المثال نجد ان عبد المنعم الغلامي يذكر ان وفداً من الوالي قصد بيت الشيخ سعيد وابلغوه بضرورة ترك بيته لئلا يصاب بمكروه والحضور الى سراي الحكومة ليكون تحت الرعاية وطمأنوه على حياته، فخرج منصاعاً ومتردداً وسار مع اولئك الذوات يحمل المصحف الشريف بيده والجبة الخضراء على كتفه وما ان وصل قريباً من مدخل سراي الحكومة حتى رفع احدهم حجراً كبيراً من الارض وضرب بها الشيخ سعيد من الخلف على رأسه فخر رحمه الله مغشياً عليه ثم فارق الحياة وهجم اخرون على خادمه ايضاً فقتلوه وهكذا قتل الشيخ سعيد ثالث ايام عيد الاضحى. ولم تكتف الغوغاء بذلك بل توجهت الى دار الشيخ وقتلت ابنه الشيخ احمد. اما اخوه الشيخ محمود فكان قد اخفى نفسه في دار المدعو خضر الهماوندي المجاورة لدارهم.

لقد كان لمقتل الشيخ سعيد في الموصل دويٌّ في ارجاء كُردستان الجنوبية وكذلك عمت الفوضى في منطقة السليمانية اما في استانبول فقد القى الشيخ قادر سلسلة من الخطابات اللاهبة طالب فيها باسم الشريعة الاسلامية الثأر السريع من القتلة والحقيقة يمكن الخروج بصورة تقريبية للواقع السياسي والإجتماعي الذي كانت تعيشه مدينة السليمانية قبل وبعد مقتل الشيخ سعيد،أي قبل نفيه الى الموصل.

لقد كانت السليمانية مركزاً تجارياً لحاصلات كُردستان الجنوبية كلها، فهي مركز استيراد وتصدير فعال ففي الوقت الذي كانت السليمانية تصدر الحاصلات الكُردستانية الى بغداد والموصل كالبسط والمواد الزراعية فانها كانت تستورد الاقمشة الحلبية والمنسوجات الاوربية

لتصدرها الى بلاد فارس وكذلك انتعشت مختلف الصناعات وكانت القوافل التجارية تغادر السليمانية الى بغداد كل أسبوعين وكذلك تصل السليمانية كل أسبوعين ومثلها الى الموصل فضلا عن انها كانت محطا للقوافل القادمة من بانه ومريفان وسنة وساوجبلاخ (٢٤١).

والحقيقة اننا لانود الدخول الى بعض التفاصيل التي تخرجنا عن صلب موضوع هذا الكتاب والتزامنا بحدود الجوانب الإنطباعية للرحالة والمستشرقين ولكن بإختصار فان الميجر سون يعتقد ان الشيخ سعيد رحمه الله اثر كثيراً في تلك الحقبة من خلال سلطته الروحية وذلك بعد ان اقام علاقات جيدة مع السلطان عبد الحميد من خلال الشيخ قادر في استانبول حتى غدا مستشار السلطان عبد الحميد الديني فضلاً عن دخوله في حلف مع السلطان وعزت باشا في حلقة استغلال لمدينة السليمانية مما حدا بسون ان يخلص الى ما يشبه القرار في عباراته إذ يقول: اما الشيخ سعيد فعلى الرغم من انعدام تبعيته الرسمية، بالنسبة الى الوضع في السليمانية، فلقد كان حراً في الأهلين واعتصار المنطقة الى الحد الذي لايبقى إلاّ هو واسرته. لقد إغتنى كثيراً من وراء المدينة والبلاد وقد أستهلكتا وخُرّبتا (٢٤٠).

ان الأوضاع السيئة التي باتت تعيشها مدينة السليمانية من فوضى ادارية سببها انهماك مسؤولي الدولة بالسرقات والرشاوي والإبتزازات والضرائب القاسية لاسيما ما يسميه الميجر سون بطغيان الشيوخ كل هذا أدى الى ثورة الشعب في السليمانية وقد قاومت المدينة لمدة اربعة ايام وضرب الهماوند حصاراً على المدينة وطرد متصرف السليمانية وشيوخ المدينة وكادت ان تسقط السليمانية تماما لولا ان وصل فوج من كركوك انقذ الموقف وسلم المدينة الى الشيوخ وعادت سطوتهم من جديد. يبدو ان الميجر سون متحاملٌ جداً على الشيخ سعيد فيصف اعماله بعد عودته الى السليمانية أي بعد السيطرة على المدينة -والعهدة عليه- بانه قام بحملة سرقة مكشوفة وابتز من التجار اموالا كثيرة من دون مبرر وكان قتل الممتنعين عن الدفع فورا سببا في اضعاف معنويات الآخرين تماما (٢٤١-٢). وفي موضع اخر يذكر سون ان الشيوخ اخذوا يشترون البساتين المحيطة بالمدينة جميعاً وفي الوقت نفسه فرضوا ضرائب على محاصيل الفواكه والخضار بالإتفاق مع سلطات المدينة فبدأ الشيوخ بنظام محصلة دفع (٣٠٠) بالمئة على احمال الفاكهة التي تدخل المدينة تحت شعار (رسم دخول خاص) ان هذا التعامل مع اصحاب البساتين والمزارع المحيطة بمدينة السليمانية جعلت اصحابها يعمدون في غضون سنتين الى اشعال النار في أشجار الفاكهة التي يملكوها وفي تخريب قنوات الارواء العائدة لهم والهروب من المنطقة إلى إيران لممارسة زراعة التبوغ هناك لقد كانت عشيرة الهماوند من العشائر المهددة لسلطة الشيوخ لا بل كادوا ان يسيطروا على المدينة وإرتأى الشيخ سعيد ان تتبع سياسة اسلوب الزيجات السياسية فضلاً عن إقامة العلاقات الودية مع

الروحانيين في قَرَداغ لكي يأمن بأس الهماوند. ومع كل هذا فان الامور بدأت تتغير وتضعف من موقع الشيخ سعيد لاسيما بعد اعلان انقلاب تموز ١٩٠٨ في الاستانة إذ اعلنت تركيا دولة ذات دستور (٢٤٣) فاختلفت موازين الامور لإختلاف سلطة السلطان العثماني الذي كان على علاقة جيدة مع الشيخ سعيد وما عاد الشيخ قادراً على الإستئساد والتحكم في ظل النظام الجديد وما عاد السلطان نفسه -على ما يبدو- قادراً على ضمان الحماية والحصانة نفسها التي كان الشيخ يتمتع بها فارتأوا ان يترك الشيخ السليمانية الى الموصل وهذا ما حصل فعلاً ومن ثم اغتيل الشيخ سعيد في الموصل محاطاً بقصة تحتمل شكاً كبيراً في مصداقيتها كما ذكرنا وبعد مقتل الشيخ سعيد رحمه الله في الموصل عاد ابناء اسرته الى السليمانية وهم يتميزون غيظاً لمقتل عميد الأسرة وقد بيّتوا النية للإنتقام من تجار الموصل الذين كانوا من وجهة نظر اقرباء الشيخ وراء المؤامرة التي أودت بحياة الشيخ سعيد. على الرغم من الأوضاع التي يتحدث عنها سون في تلك الحقبة لكننا نعتقد ان اسرة الشيخ سعيد تحظى بمكانة روحانية مقدسة ولاشك ان المدينة (السليمانية) قد هزها خبر مقتل الشيخ في الموصل، لكن سون يذكر ان السليمانية اجبرت على اعلان الحداد العميق واخذت الحاكيات والالات الموسيقية جميعاً من اصحابها عنوة ودمرت كما تم الاجهاز على حفلات الزواج جميعها فوراً وابدلت الى احزان وتم قتل بعض تجار مدينة السليمانية واستشرت حالة الابتزاز من جديد تحت حجة الانتقام وحدثت السرقات والسطو على البيوت وفقد الامان وكان المتصرف (المحافظ) ومدير الشرطة يتسلمان عمولتيهما اثر كل هياج تشهده المدينة (٢٤٥) أي ان هذه الاعمال اللاقانونية كانت تجري نصب اعين السلطة لا بل كانت تمثل مصدر ربح مالي لولاة الامر في المدينة.

ويبدو ان بوادر الإصلاحات الدستورية بدأت تصل المنطقة إذ اوعزت إلى والي الموصل بالتوجه إلى السليمانية للتحقيق في المشاكل الرهينة التي عاشتها المدينة بعد مقتل الشيخ سعيد ومعاقبة المبتزين لكن سون يذكر ان الوالي سقط في الخدعة قبل ان يصل السليمانية فما ان وصل جمجمال، حتى اسرع الشيوخ باستقبال الوالي واحاطوا به مما جعل تجار المدينة غير قادرين على مقابلة الوالي وتقديم صورة حقيقية له، اما الناس فكانوا مستضعفين ولايجرأ احدهم على الشكوى، واما القلة القليلة من موظفي الحكومة فقد ابتيعت!! أي ما عاد لهم لسان بسبب الرشاوي وبيع الذمم ويبدو ان الوالي نفسه قد عاد (رابحاً) من هذه السفرة التحقيقية.

يذكر سون ان في غضون ٢٤ ساعة اصدر الوالي أمراً إلى طائفة التجار كلها يستدعيها إلى الحضور إلى السراي (مقر الحكومة) لتجيب عن السبب في أحداثها تلك الصعاب

والإضطرابات في المدينة ومعارضتها للشيوخ.

وينتقد سون بمرارة هؤلاء الأكراد، أي التجار الكُرد إذ يقول عنهم انهم لم يظهروا من شجاعتهم الاصيلة الا قليلاً ورفضوا الإجابة عن تهم ظالمة وضيعة، أو حتى ان يعترفوا بوجود ذلكم الموظف الفاسد (المتصرف: المحافظ).

والخلاصة عاد الوالي إلى الموصل مثقلاً بالاموال والهدايا بعد ان (ثبت!) لديه ان التجار هم المذنبون، وهم مفعم بالرضا عن نفسه وعن الشيوخ لكن الكل بدأ يشعر ان ايام السلطان عبد الحميد بدأت بالعد التنازلي، ومثلما كان أصحاب البساتين والمزارع قد تركوا السليمانية بدأ تجار المدينة يهجرونها بدورهم ذلك هو الوضع في السليمانية في اب ١٩٠٩ إذ كان سون قد بدأ مغادرتها (٢٤٧-٩).

من خلال الإطلاع على مجمل الإنطباعات التي سجلها سون يمكن ان نستشف ضعف وانحلال الادارة التركية واضحاً وما يفرزه هذا الانحلال من مشكلات عانى منها الشعب الكُردي وعانت منها الاقليات المتعايشة في كُردستان.

ان ضعف الحكومة كان يتجلى في ضعفها الاداري والعسكري فالفساد الإداري كان قد استشرى والمسؤولون الأتراك منهمكون في الرشاوي والسرقات وعقد الإتفاقات السرية مع المتنفذين في المنطقة اما الجيش فكان متأثراً بلاشكّ بحالة الوهن الذي اصاب جسد الدولة كلها وهو جيش من دون قضية.

ان احدى الامثلة التي يمكن ان تعكس لنا مدى التخلف العسكري في المنطقة بعد ان ذكرنا مدى تورط مسؤولي الدولة بالرشاوي والسرقات بالتواطؤ مع الرجال المتنفذين. يذكر الميجر سون لنا هذا الحدث العسكري الذي كما يقول سون جعل الناس تسخر وتيأس على حد سواء من وجود الدولة في المنطقة. وهو عندما انتصر الهماوند على الجيش التركي يصطحب عدداً من الموظفين الأتراك وزوجاتهم في منطقة بازيان على الرغم من التفوق العددي للأتراك وتفوقهم في نوع السلاح ففي خلال ربع ساعة سقط قائد الجيش قتيلاً ثم سقط عدد من القتلى والجرحى واستسلم الاخرون وقام الكُرد الهماوند بتفتيش الاسرى واما النساء فتم تفتيشهن من قبل نسوة إذ كما يقول سون ان امرأة اخبرته ان الهماوند جاءوا بنسائهم وجعلوهن خلف الصخور والقتال جار ثم انهم استدعوهن للخروج وتحري لباس الأسيرات الاناث.

ويعلن سون قائلاً، ان بين اشد الأكراد بداوة، لن يعمد رجل إلى انتهاك حرمة امرأة مسلمة الا ما ندر وان الهماوند قبيلة تقية، تعمد إلى إيقاف افعال الغزو عندما يحين وقت الصلاة،